« أنطون قازان

في ذكراه الثانية والخمسين »

محاضرة الأستاذ روبير عبد الحي

ألقيت في "مجلس الاثنين" (دار نعمان للثقافة) جونيه

الساعة العاشرة من صباح الاثنين في ١٠ آذار ٢٠٢٥

من هو أنطون ثحارات الذي تحتفي به اليوم ؟؟

أديب عبقري من لبنان، حمل مشعل الكلمة عالياً، فراحت تخضوضر على يديه، لتجعل منه رائد النثر الجمالي المجنّح، ترفل الكلمة على شفتيه بتشاوف وكبر، كأنها صلاة على شفتي إله ...

~~من هو هذا الأديب العلم الذي تجتمع على اسمه اليوم تمهيداً للاحتفاء به ؟؟؟~~

هو أنطون بن نخله ثحارات، تفتّحت عيناه على الحياة، في الخامس من تشرين أول سنة ١٩٠٧، في بلدة زوق مكايل - كسروان، خرجت "اللون نوعة"، والخيط والنشاج بقاء ...

درس في معهد القديس يوسف بيطوره، ثم درس الحقوق في جامعة القديس يوسف في بيروت ليتخرّج منها جامعياً، وهو بعد في الحادية والعشرين من العمر، فاعتبر ذلك معجزة من كان برجاحة أنطون يُقاس عمره بالسنين ؟؟.

حكاية أنطون ثحارات والثقافة حكاية طويلة، وجدود بومه خيرا تخطّت كل حدود، بدايته مع انبلاج الخيوط الأولى للفجر، أما نهايته فرهن بخيوط الضوء في العينين، يبدأ مع ضجّة الأثوال عند الصباح، ولا يعرف انتهاءً بانتهائها.

- ٢ -

كان أنطون شازال محور الحركة الثقافية في كروان ومحرّكها الفعّال، مما جعل الأنظار تشخص إليه، يوم بدأت المساعي الحثيثة لإنشاء مجلس ثقافيّ في كروان، فتمّ اختياره بالإجماع سنة ١٩٧١، فراحت الحياة الثقافية تزدهر وتتنامى على يديه، وهو يعتبر «أن قولد مجلس ثقافيّ في منطقة حدث يُفرح له. إنّه اتخاذ موقف من الحقيقة؛ وأيّة حقيقة أسمى من تأمين المعرفة للجميع، في عصر غدا العلم فيه خبزاً ودواء؛ وتوزيع هذا الخبز بالتساوي يجعله كالعدل يتساوى الجميع في محرابه.

لم يعرف أنطون قازان صداقة في حياته توازي صداقته للكتاب. وقد جمع خلال حياته القصيرة مكتبة قلّما جمع مثلها إنسان: أعلام من الشرق والغرب تجسّد حضارات شتّى عرفتها البشرية عبر التاريخ. وغالبًا ما كان أنطون يقضي أيامه واصلًا الليل بالنهار، في صحبة هذه الكتب، وهو يعمل على كتابة مقالة أو تدبيج مقدّمة لكتاب أو بحث أو محاضرة. ولم يكن قنديله ليُطفأ إلا إذا حارت قواه وأغفى على مائدة الرقم. وقد راحت ترنو إليه الأبصار في كل أمسية أو محاضرة أو مهرجان: فكان أديبًا ملكَ ناصية العربية فانقادت له شوارِدها، وجعلته "أجمل كلمة تفوّه بها العصر" كما قال سعيد عقل، [illegible]

[illegible]

[illegible]

ولعلّ إيمان أنطون العظيم بالله و

ولعلّ إيمان أنطون العظيم بالله وبالتعاليم المسيحيّة ،
تركه بصمات واضحة المعالم في نتاجه الأدبي ، الذي ظهر
في قسم كبير منه بسمة دينيّة ظاهرة . فهو في
مقالة له في ذكرى صديقه وابن بلدته الياس أبي شبكه يقول:
« ساعة يموت شاعر ، تمرّ بنا ظلمة من ظلمات الجهر العظيمة » .
فتحضرني هنا مناسبة مماثلة ، يوم تدشّن مجلس كروان الثقافي ... أحبّتي الواقفين بينكم لأنّ كلاماً كالذي
وعدوه ، يسمع وقوفاً بكما الأناجيل
وقد كان أنطون منفتحاً على الديانات السماوية
وحاضّة على الإسلام ؛ فقد انحنى أمام القيم الدينية
كلّها وأمام التضحيات جميعها : في المساجد كما في الأديرة
والكنائس ؛ وفي عاشوراء كما في [redacted] الصيام والآلام .
ففي كلام له في عليّ بن أبي طالب يقول : « تنسّمت
ريح النبوّة ، وبتّ على فراش الرسول ليلة الهجرة لتبرد
الدنيا بالشجاعة والوفاء [redacted] ... وإذا كانت الجنّة
تحت أظلال العوالي ، فأيّ ظلّ ينفع لك في الجنان ...
ريح البلاغة » هكذا كانت تتكلّم السماء » .
هذا الكلام دفع بسماحة الإمام السيّد موسى الصدر
(الذي كان حاضراً) يقول : فلأسكتنّ أنا بعدما تكلّمت أنت
وعن عليّ بالذات .

موتك :

« مات في الحرف المعنّف والريشة المدلّلة ، في تماثيل الرخام والمرمر ... في طموح قدموس وشاطئ الأبجدية ... مات في انفجار العبقرية » . هذا الذي كُتب بمداد القلب تفجّرت فيه العبقرية وحطّمت منه الكبد المقرّحة ، فسقط وكان سقوطه عظيماً ، فخيّم على الجبل سكون رهيب ، وذُهلت الكلمة المونقة حيال الهول الفاجع وبالسقطات النجوم .

سقط الفارس عن جواده في العاشر من آذار سنة ١٩٧٣ وهو في الخامسة والأربعين من العمر ، فتوقّف المرجان وسقط الصولجان ، وإذا بالنجم الذي كان يُنير عتمات الدروب يلفّه الضباب وراء السُّحب في الأفق البعيد ، ليتركه الجميع في دهشة وذهول ، تنادوا إثرها لتكريمه عبر مرجانات أدبية متتالية ، وأوسمة تكريمية رفيعة ، إضافة إلى وضع صورته في المكتبة الوطنية في بيروت ، وتسمية أحد شوارع العاصمة باسمه . كما إن بلدية زوق مكايل وضعت تمثالاً كبيراً لغزلان تخليداً لها .

ولعلّ القدر كان هناك ، يوم وقف أنطون غزلان يلقي كلمته الشهيرة في الأديب الكبير فؤاد سليمان حيث قال : « وكأنما لشهامات عمرك ، بيننا نؤثر العمر القصير » . ولعلّ عبارته هذه جرت مجرى الأثير ، فتلقّفته يد الموت وكان محطّها كفؤاد سليمان من ضحايا الأربعين .

ولكن ، ما أروع أن نستشهد بما قاله أنطون غزلان في حسن كامل الصباح لنقوله فيه « قالوا إن حياتك في الأرض قصيرة ، وأنك قضيت ولما تجاوز الشباب ، وهل من راع يقيس الكون كما نقيس دارتنا تحسب حياته بالأيام ؟ فما أخطفها سنوات النور ، وما أترع الثواني » . ذلك أن أنطون لم يمشِ درب الحياة خطوة خطوة ، بل

بل وثب عليها وثبا ، فإذا العطاء بحجم المسافة لا بحجم الدقائق .

وهكذا نرى أن أنطون غازان كان فريداً في حياته ، كما كان فريداً في مماته ، وشمائله العديدة أكبر من أن تحدّها كلمة أو يحتويها بيان .

وقد جاء في مقدمة الأب يوسف عون في تقديمه الجزء الأول من "أدب وأدباء" لأنطون غازان حيث قال :

« ذاك البرياء اليوسفي ، والحياء العذري ، والخلق الكهنوتي ، والعقل الأكويني ، والعلم الموسوعي ، والسبك الباذجي ، والبيان العلوي ، والجرأة الأسدية في الدفاع والفصاحة على المنابر والرعاع ، كل هذا بماذا أصفه ؟ لم أجد لك يا أنطون كلمة تدلّ على كل هذه الصفات العاليات ، إلا كما يوصف الأسد بالأسد ، والشمس بالشمس فقلت : أنطون غازان كان أنطون غازان وحسبك الله » .

آثاره : لم يكن له كتاب ... بالتعاون مع الأستاذ شوقي خازن

جمع صديق خازن الأب يوسف عون آثار أنطون في كتب خمسة : الآثار الأدبية النثرية في ثلاثة كتب، والأبحاث القانونية في كتاب والآثار الشعرية في كتاب إضافة الى كتاب سادس بعنوان "أنطون خازن بأقلامهم" واسمحوا لي هنا أن أنوه بمقدمة الجزء الثالث التي كتبها د. كمال الحاج بالإضافة الى دقته المتناهية وحرصه الشديد على الجودة، وعلى النوعية في العطاء، ندرك عندئذ أن ما أعطاه أنطون خلال حياته القصيرة لم يكن بقليل. فأطباق الذهب التي قدّم عليها حجارته الكريمة، كانت وليدة الضنى والوضع الممض. ونتاجه الأدبي ليس كتباً خمسة. وحسب، إنما هو كتب كيف يكون نحت الجمال.

والجدير بالذكر أن "الأنا" القارئية لم تكن لتشغل حيزاً كبيراً من همومه، بقدر ما كانت انشغالاته منصبّة على الآخرين. إلا أنّ أصالة أنطون الأدبية، تجعلك ترى ذاته مزروعة في كل ما كتب. ومن هنا يمكن القول: إنّ أنطون خازن كتب في الآخرين، ولكنه لم يُقرأ إلا لذاته.

أنطون غازان الناقد :

عرفت أنطون موضوعات نقدية شتى، وكان له في كل منها موقف علمي دقيق وواضح، فقد تركه مواقف بارزة في الشعر والشاعر، وفي اللغة الشعرية والتجربة، والموهبة ... وفي الشكل والمضمون ودور كل منهما في النتاج الشعري، بالإضافة الى موقفه من التراث، ومن الشعر القديم والشعر الحديث ومقومات كل منهما، بالإضافة الى موقفه من الوزن والقافية والإيقاع ودور كل منها في عملية الخلق الإبداعي

ولا مجال هنا للتوسع والتفصيل ...

أما على المستوى العملي التطبيقي، فقد تناول أنطون بالدرس والتحليل، نتاج عدد كبير من الأدباء اللبنانيين والعرب، لم أعرف منهم إلا أن أثنين من هؤلاء استحوذا على ألقه على اهتمامه، كما احتلا ساحة واسعة من مؤلفاته وهما سعيد عقل وإلياس أبو شبكة ...

في جبران خليل جبران :

يرى فارزان أنه « إذا كان أجمل ما في جبران أنه غريبة ، وأشمل ما فيه أنه محبة ، فإن أبقى ما في جبران أنه عاصفة ... وهذه العاصفة لم تكن أبداً وليدة زمن معين بل انها خارج إطار الزمان لانتمائها لكل زمان ... فالرجل تكلم بلغة الأجيال ، واذا كان جبران متحرراً من الأوزان والقوافي ، فلأن ذلك يدخل ضمن نطاق ثورته وغرابته التي تتخطى المألوف ، ولأن موسيقى الروح الداخلية أقوى من موسيقى الأذن وأفضل ... ثم يشير الى الكاتبة المخيمة على أدب جبران « خيرى منير كاتبة خيرة لم تصب بعقم اليأس ... وساعة تجتاح بلاده مجاعة يتلوى أسى ولوعة ، فيود لو أنه سنبلة في تربة بلاده ليلتقطها الطفل الجائع »

في سعيد عقل :

« هنيئا لو تولد دولة بمفهوم سعيد ، ويطل غد بحجم أحلامه » ... هكذا كان أنطون فارزان يتطلع الى سعيد عقل كمن يتطلع الى مارد عملاق ، فيترشح الوقوف أمامه ، ويسعى لمواكبته على ملتقى الجبال ، فيسعى جاهداً لإقحام كلامه على سعيد عبارات وصفاتٍ وألفاظاً هي من معدن سعيد وديدنه ؛ كل هذا ليلذ له دخول الهيكل والتنعم بجمالية فلسفته ، فيقول :

« واذا شئت على اضياع اللفظة بين يدي سعيد ، فأنت أمام جلال للكلمة أو أمام نحات يعمل إزميله فنيا

لنأخذ الشكل الذي يريد، [illegible] منتظياً إزميلاً مذهّباً يعالج به عناد المرمر حتى غدا طوعَ بنانه».

وإذا كانت معظم كتابات سعيد يكتنفها الغموض، فإن غموض الرمز المجتبى الذي يُقيّد سعيد عقل أميره، و«إن في تلاوين غموضه إغراءً ما بعده إغراء»، وتلك [illegible] أو لم يقل صاحبه: «إن كل مقدّس وما يجب أن يبقى مقدساً يُغلّف بسرّ»؟.

في الياس أبي شبكة :

علاقة أنطون فارس بابن بلدته الياس أبي شبكة علاقة عميقة وطيدة . فكلاهما فتح عينيه على هضبات كسروان وعلى الخليج الأزرق المستدير والأكمات السبع ، فأخذا بانعكاسات أجمل بقاع الدنيا على بهاء الريشتين . وكان أبو شبكة يشجع فارس على الكتابة ويمده بآرائه .

يعتبر انطون فارس أن « أغاني الفردوس » هي قمة ما كتبه الياس أبو شبكة وأن خلوده رهن بها . ويرى أنه « قبل أغاني الفردوس » كان في الزوق بشاعر ؛ أما بعدها فالشاعر الياس أبو شبكة .

« غاص أبو شبكة في الأغاني الى الطبقات الغريزية المظلمة ، وعاد منها بغضب مقدس » . وأغرب ما في هذا الغضب « أنه البل والضحية في آن ؛ فقصائده : « سدوم » و « الشهوة الحمراء » و « شمشون » ، كلها قذائف في وجه الفجور . إن في صرخاته وجع الأنبياء ، وعلى محياه أغانيه رسالات » .

شعر أبي شبكة كما يراه انطون يرتكز على دعائم ثلاث : الحب ، الألم والطبيعة . وقد حنت عليه الاقدار الحياة أن يدرك ألوان الحب جميعها ؛ فكان بريئاً في « غلواء » ، شقياً في الأغاني » و وصافياً في « نداء القلب » و « الى الأبد » .

واذا كان الحب هو الأساس الأول لشعر أبي شبكة ، فإن الألم هو أساسه الثاني . أليس هو القائل :

« إجرح القلب واسقِ شوكه منه فدم القلب خمرة الأحلام » ؟!؟

وهو ثالثاً وأخيراً شاعر الطبيعة. وهو خير من أحسّ بها وغنّاها في الكثير من آثاره الشعرية والنثرية ولاسيما في كتابيه "نداء القلب" و"إلى الأبد".

- المرأة في أدب أنطون غازان:

(٨ آذار.. تحية الى المرأة في عيدها)

المرأة بنظر غازان "جمال" و"شيء آخر معه".

ولأيّ جمال وجب، فهي صدر وحي لا ينضب، ونقطة انطلاق إلى آفاق بعيدة وعوالم واسعة. وهو في نظرته الى شؤون المرأة وشجونها، والى التطوّر التشريعي الذي أصاب المرأة في التاريخ، يجد أن المرأة الشرقية لا زالت تعاني من الأمّية والجهل بشكل عام، وأن المرأة اللبنانية تقع في المنزلة الوسطى بين الشرقية والغربية. وهو يثور بالتحسّر على ما تعانيه المرأة الشرقية إزاء حضارة الغربية فيقول: «ها هي فتاة الغرب تقطع أجواء السماء بطولة رائعة، أفيجوز أن تتعثّر فتياتنا في سيرهنّ على الأرض؟».

هذا وقد تطرّق غازان الى نظرة الدساتير الى المرأة والى القوانين والتشريعات التي تطالها، إضافة الى الحركات النسائية الداعية الى التحرّر والمساواة من خلال المؤتمرات والمناظرات والنضال على أشكاله...

أسلوب أنطون فارَان

يُعتبر الأسلوب الفارَاني أسلوبًا فنيًا ممزًا، جعل من صاحبه رائد النثر الجمالي المجنّح، تترادى الكلمة المترفة في أدبه بغنج ودلال، نظرًا لدقته المتناهية في اختيار الألفاظ. وما دقّته هذه في اختيار الألفاظ ووضعها في مكانها المناسب، إلا وليد تأثر أنطون بمشاهدته أبناء بلدته، وهم يُعطون الخيوط الحريرية من ذوات عيونهم، لتأتي غاية في التناسق والجمال، ولنسمعه يقول: «أنا ابن الزوق، ربيب المغازل وأليف الأنوال، كم شغلت طفولتي دقات العين على مرأى يدٍ صنّاع تجسّد الخيوط صورًا وألوانًا، أعرق أي ضنى يحتجب وراء البدع، ولربما أخذت عنها في صناعة الأدب، بعض اللذة في وضع الخيط على الخيط، بداية أبناء المشاغل، فأتمتّع بنهوض الطاء قبل أنتهائه».

وهكذا نرى أن الكلمة في الأدب الفارَاني تتزيّا بحلة العيد، وتضع التاج وتحمل الصولجان. فريشة هذا الرجل من خصبة أم هجرة من خبايا العروق...

الطرافة في الأسلوب الفني

وبالرغم مما تميّز به أنطون ثارات من رصانة في حياته وفي تصرفاته، فإنّ أدبه يحفل بومضات طريفة وأفكار محبّبة، تنمّ عن ظرف وتكشف عن طلاوة. فلمّا عُرف برجل هذا الرجل، وجرّ ذلك الى محاولة أنطون التغلّب على مشاكل الحياة وهمومها بشيء من الدعابة التي تسلم في التخفيف من وطأتها: فهو في رسالة له يخاطب فيها رئيس تحرير مجلة «الرسالة» الذي كان مقعد الفراش، فيواسيه قائلاً: «لقد أوجعني أن يقعدك الفراش هذا القعود، فلا يدعك تقلت منه حتى يشدّك من جديد إليه، خرّق الله بينكما»، وهكذا أصبح فراش المرض عاشقاً لا يطيق هجر المعشوق، فيشدّه إليه ويرينا بجواره.

وهو في تقديمه الشاعر عمر أبو ريشة في إحدى الأمسيات الشعرية، (ومعروف عن عمر أنه رجل دبلوماسي مثّل بلاده في أكثر من دولة) يقول فيه: «في تقديم عمر، كدت ألتقي بتحيّة صينيّة قديمة، أو بانحناءة يابانية، فحارس النار المقدّسة ما يؤذي إذا ما قُدّر بغير هذه التحيّة، على أنني أخاف إذا التفيت بهذا الأمر أن يرد التحية بمثلها فتشرق الأمسية قبل أن تبدأ، وإذا أنتم وخى على وماض خالية

وتبلغ الطرافة ذروتها في معرض كلام أنطون فارّان على ديوان صديقه إلياس أبي شبكة «أغاني الفردوس» الذي وُلد معه أبو شبكة من جديد، فيؤرّخ فارّان ولادة هذا الديوان بقوله: «ولد أبو شبكة في الخامس والثلاثين من عمره، وبتاريخي أدق في التاسع والعشرين من شهر آب سنة ١٩٣٨؛ وكان ذلك على يد «الدلتور» فؤاد حبيش في عيادته الشهيرة «دار المكشوف». لم يولد محفوفاً بأصوات الملائكة، وأنّى لهذه الأصوات أن تخرق «دار المكشوف»، بل على فحيح الأفاعي!!.

فأيّة طرافة أبلغ من تشبيه عملية طبع الكتاب بعملية ولادة بشرية، وتشبيه دار النشر بالعيادة، وصاحب الدار بالطبيب، ثم توجيه هذه المداعبة اللاذعة الى صاحب الدار الذي يصف على الملائكة دخول عتبات داره لأنها تضج بفحيح الأفاعي، مع ما تنطوي عليه هذه الأفاعي من خبث ومكر ودهاء (يتمجد اسم العدرا ٠٠٠).

هذه بعض نماذج من طرافة الأسلوب الفارّاني التي تدخل القلوب دون استئذان، نظراً لما تحمله من غرابة وتجديد. وإن أدباً لا غرابة فيه لا حياة فيه. فالغرابة بنظره «تولّد المفاجأة، ومن شأن المفاجأة أن تعطي نسلاً جديداً للحياة!!.

~~تكثر في قصائد الشعر الحديث~~

~~وإذا كان من تحديات الشعر أنه حقيقة تُعبّر عنها بالمجاز~~

وإذا كان من تحديات الشعر أنه حقيقة تُعبّر عنها بالمجاز، مع ما يكتنف هذا المجاز من صور شعرية موحية، وإيقاع شعري خفي، فما أكثر ما قاله غازان من شعر، بل ما أغزر نتاجه الشعري! «يوهمك أنه ناثر وما علموا أنه بائع تماثيل... فمع أنطون تحوّل الحبر الى دم والقلم الى صولجان... وكلماته، لمرّة ما هي شعر بانت نثراً»، أما ألفاظه فتستحيل على رأس ريشته شرباً أو حداداً أو نسماً ينسم عليك. وإذا كانت الاستعارة سمة العبقرية ولا تُعلّم كما قال أرسطو، فإن غازان برهن المعنى عبقريّ بطبعه.

فأيّ شعر أسمى من قول غازان في الشاعر محمد الحوماني: «عرفنا شعر الحماسة شعراً دخانياً، لكنه مع الحوماني شعر جمريّ فيه حفر عصب وتواقيع دم»، تمهّل وأنت تقرأ نثراً من هذا القبيل أن حرارة الجمر تحرّكك فيسيل منك الدم النجيع.

أما ما قاله في الياس أبي شبكة فتشعر أن كلماته حفرٌ ونزيل فيقول: «هذا الولد الإعصار، زاحت الأرض من تحته كأنه انحدر من نجم بعيد، أو مرّ في اندلاع بركان أو ساعة زلزال، إنه جاء في خلل كونيّ على أيّ حال، ما عرف الحبر يوماً بل كتب بدم ونار، وكبريت، بريتٌ من حروفه على وجهك لفحُ طيب، لفحُ الصحارى...»!

ومن ميزات الأسلوب الغازالي :

(العودة الى مجلّة "حاليات" صفحة ١٠٤

وأخيراً :

أظنّ غازالي في الميزان :

(العودة الى الرسالة الجامعية سنة ١٩٧٥ صفحة ١٣٤) .

والسلام .

جونيه في ١٠ آذار ١٩٨٥

روبير عبد الحيّ .

٢- كلمة الدكتور أديب كبا.

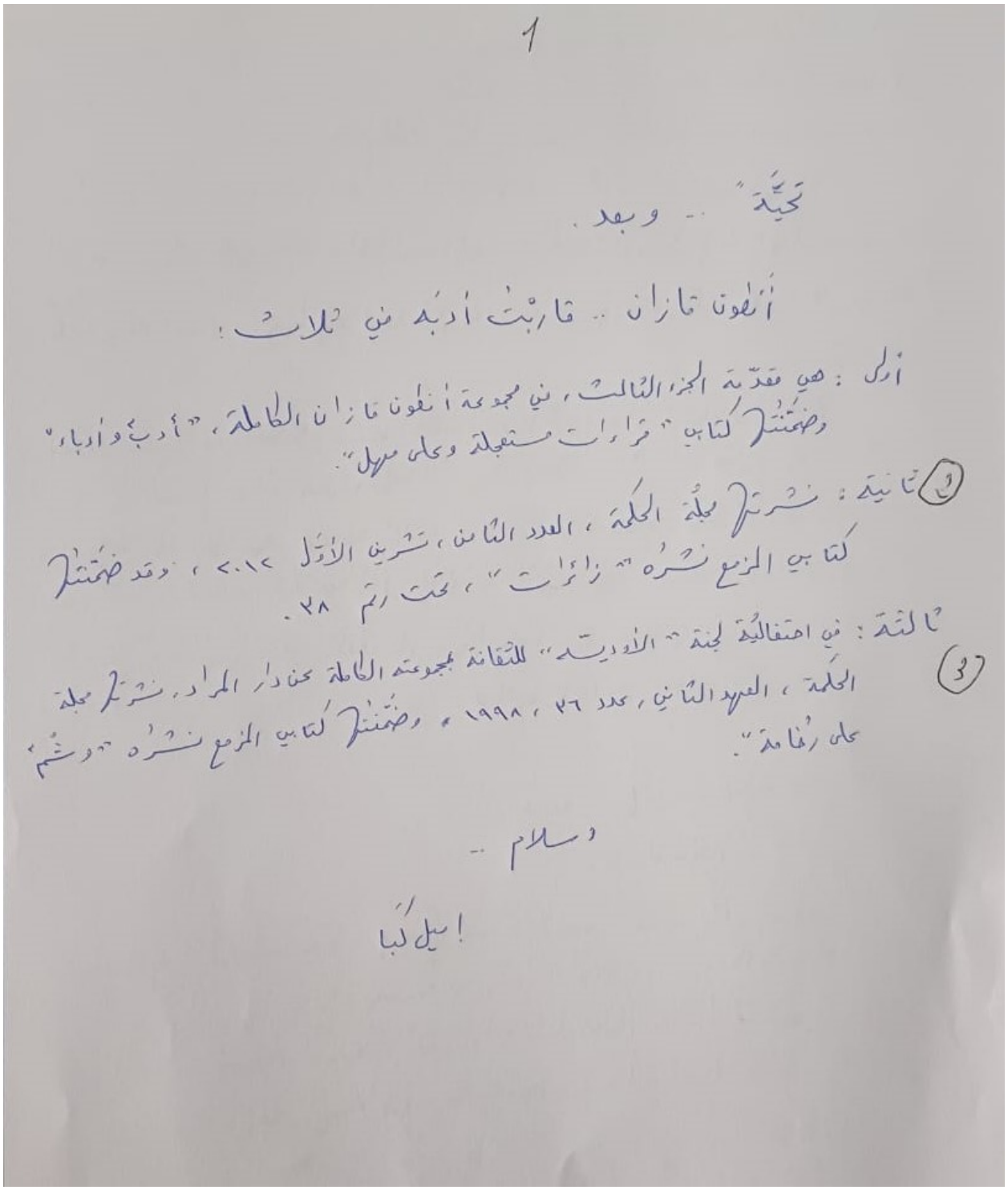

1

تحيّة .. وبعد.

أنطون تازان .. قاربْتُ أدبَه في ثلاث:

أولى: هي مقدّمة الجزء الثالث، من مجموعة أنطون تازان الكاملة، "أدبٌ وأدباء" وضمّنتُ كتابي "قراءات مستعجلة وعلى مهل".

(1) ثانية: نشرتُ مجلّة الحكمة، العدد الثامن، تشرين الأوّل ٢٠١٧، وقد ضمّنتُ كتابي المزمع نشرُه "قراءات"، تحت رقم ٢٨.

(2) ثالثة: في احتفاليّة لجنة "الأوديسة" للثقافة بمجموعته الكاملة بمنزل المرادي، نشرتُ مجلة الحكمة، العدد الثاني، عدد ٢٦، ١٩٩٨، وضمّنتُ كتابي المزمع نشرُه "وشم على رخامة".

وسلام ..

أديب كبا

وفكر واضطراب ، ثم ما قرأته أنا مل جوزف من سلامات لذلك .. ما بين يديك
للمثنى ولادة ؛ أولى من عدم ، لأنه انتهار فواطر من القوة إلى الوجود ، وثانية من موت ،
إذا ما أشرق تدفق وهو عائد .. لكنه بعيد محنى للمقام وهين رحيم .

فما هذا الذي أنت ناعله .. يا صديقي ؟! وفي هذا العاصر الذي من الشواء ؟!
هنا .. كل شاعول فداءٍ بعد ، أعمق طريق ، والناس لحضارة التسهيل ، بالمرق الدقيق
المزج ، لا لشذور البلور ، وتشهي الفرادة .. كريم على مائدة لئيم . فما هذا الذي تفعله ..
يا جوزف ؟!

إيه .. مأساتان .. وعقول ! لا يستوقفك عتب خضوض ، أو تلهيتك قوقعة
عاسد . إن التراتيه إلا بمكن الصنيع الجميل ، كما تفعل ، وقبضة التقدم إدامة أمرق
لمرصد الأبواب ، كما تفعل ، والكتابة الأدب الفنة إقبال من بعيد ، صدقني .. كما تفعل ، وإلا
نمرت بي لافتة" عند منعطف طريق ، هيّا" لا يؤهل بأكثر من نظرة ، بعدها .. جدّ ومدك
في مسعاك ، لا انفراج ، لا ضيق ، لا مأسور لبحتر ، لا طليق ، إلا المتم الفرد الذي هو
أنت ، أما ما قبل .. فالصفر ثاويا بلا مال .

الثامن .. عشر تشرين الأول .. ٢٠١٢ .

(٢٩)

٢٨ .. أنطون قازان .

حكاية ألف .. حقا عندنا ذات ذهب ، فجة سلال ، ثم ارتحل ،
تاركا في البال أنه الحدث ، وبهجة الفرادة في مستقر كريم .

أنطون قازان .. الحامي الشاعر الناقد التقيف الخطيب .. أليف المنابر ،
إرث ضخم ، فأنة المبتدا ؟! وكيف لدارة قمر أن تفسح لكامل رؤية ، وإلا
تعاود الشروق ؟!

موائد مكرمات ، وضوان دماثة هو ، فدونك القرى الجواد كلما أعتمت
دروبك أو امتنع عليك افتتان . تقرأه ، أنطون قازان .. وإذا هو سحره
والأخر قرينه الذي فيه ، لطائة الخبز الحيي ومداس الفنة يقام ، تتقدمك
واجب لتناول ، يملأك زهو رجاء بأن البدع جنان ثقافة ، فأقبل مستطارا

٢٨

أشجارها، أو شارك بسمة حنون حمارها، تلك الرتبة المختارة على وساعة بلاده، إن هي إلا صنو مختزل محجب: سراق أزمنة وتجارب ونوب.. تركض نحو عينيك في توان، وأناس، وأمم، أمكنة، وهاد، وأمتان، من أسلة ريشة إجمال تواريخ وعود بزفرد الحرف ونث البيان.

وترصد أنطون قازان في مرتع كل صديق، أدباء شعراء أهل فكر ولقيا، تقوى بهم الأواصر، وتفتق القلوب قرابة، وإذا لهم منه براعم الوقد، انقطاف الأملود على الأملود، في فردوس الجمال الأبيض. أو كيون ما ترسمه الكلمات أقل من محاولة البعيد المفقود فيدنو؟! أو أدنى من محاولة القريب في الهوية فيجلو؟!

وأنطون قازان.. هادر في الخطابة.. لغة الجمر القاصف في مكانه، أو كيان القماش الحمل على الخدود، قلقلة إبان طلوع، والكلمة.. آخر في حسبانه، والخطبة انتشار دهر بد، من أوانه، والغاية مناراة الخلود. نأنطون لرفقة منة إليه.. إليه، وبمثل هذا الذي يقيد يديه، فتقادر.. أنت السامع، في انحسارك ما يشبه تحفز قمم لتتراضى، وفي فرص عينيك.. نجم فجرية الألق حطة كلامه في مدار.. فاطلق، وإلم يفعل فمؤمه أن ما قيل أحياء كلام، أما الفهم فمنة أن في أنف استرسالك نحرا كونيا قد بدا، أو كلونيا آخر أفخم قد قام.

وأنطون قازان في قارئيه ثنائية نشوة: متعة استحضار البلاغة العربية.. صهيلة ترمل بقشيب الحلل والطيب، وحميا الفكر مغامرة ذاته، ونداماه حوارات داخلية، مواقف متقابلة، وأضداد، فتأفذن أراهيده ذاهبة بك، وتؤوب.. ووسنك الفتية من نشوة ذروة الصحو من قبول.

نظيم أخ من بلادي.. أنطون قازان، فجيئوه روحا حية في كتبه، والهجوه ضبا محجرا في قريته. إنه مدرس هذه الأمة الواجب.

٢٩. الأب يوسف يمين.

حقيقته.. أنه السعي والعوالم أسرار، وأن الغد محاولات يومية اختراقا للسواد، إذ الفجر.. ذات عهد، همة الشروق، لحظة هو في المرحلة الأخيرة من الليل في صومعة التحلي.

١٦ - أنطون قازان (*)

● **الفرحُ المنتمي.**

توالي الإنسان والأشياء والأحداث، تعاقُبًا داخل حَلقة مغلقة. . لكأنّه الدورةُ المسعى الموحّدة للكائنات، ناسًا. . . مجتمعاتٍ وتاريخًا.

فما إن تكونُ أنتَ مع نفسك - امرأً عاديًّا أو كاتبًا شاعرًا، أي معَ الوَحْدة الكافرة، «الصحراء التي في أعماقك» بتعبيرِ لموریاك[1] - ما إن تكون، حتى يجتذبُك الآخرُ، كلُّ آخر، لتتكاثر، انتماءً منك إلى زمنٍ يُؤهّل برؤى وأفكار هي في النهاية وقعُ أقدام العبورِ التي لذاك المترائي أمامَك في الحدث الراهن للحياة.

ومن ثمَّ، بُعَيْدَ وَحْدةٍ وانتماء، عودةٌ من جديد إلى نفسِك، تمامًا كمثلِ ما يفعل البشرُ، بحتميّة ما بُرمجَ له كيانُهم، فيؤوبون عندَ المساء - ويا لَدهشةِ رائيهم عندَ المساء يؤوبون - كلٌّ إلى موئلِه - يدخلون بين ليْلَيْ صمتٍ وأسرار،

تَوحُّدًا مع عينٍ أُقعدت فوق وسادة، وبصيرةٍ أسلمتْ قيادَها للأحلام.

توالي الكائنات تعاقُبًا. . قلت، وَحْدةٌ صحراءُ، رغبةٌ في تكاثرٍ فانزواء مرّة أخرى، ثلاثيّاتٌ على مدى العمر في واقعِ كل إنسان، فكيفَ بالأديب؟ وحتى لكأنّنا الجزُرُ تلاقتْ قبلَ المدِّ الكبير، وهي على موعدٍ في أصلها بالأعماق والنظرةِ إلى السماء، وعادتْ في إثرِ اندفاقهِ مرةً أخرى، إلى وحدانيّتِها الصحراء.

هو أنطون قازان انتماءً إلى الآخر بالحبّ، بل بالفرح والحبّ في مجموعة مؤلّفات تستحضرُ عصرًا بل عصورًا، وتختصرُ وطنًا وشعبًا وأمةً وإنسانًا في مرماها البعيد.

ستة مجلّدات، نسيجُ أحداثٍ وأسماء، شعوبُ أفكارٍ وأممُ خواطرَ، بل ذُرّية رؤى وأشواقٍ على امتداد مساحاتٍ مضيئة من تاريخنا اللبنانيّ المعاصر والمَدَيَيْن العربيّ والعالميّ.

فأنطون قازان كاتبٌ لم «يستسلم للوَحدة» - والعبارة لموریاك[2] - بل انتمى إلى الآخر بفرحٍ يُغنّيه ليُبهجَ عزلته هو، على غرارِ كلّ شاعر في عُرْفِ شلّي[3]، واندماجٍ بالعالم، ناسِه، والأشياء بنسقٍ خاص، فعلَ كلّ أديبٍ كبير في رؤيا بيار إمّانويل[4].

إنّه الناقدُ. . مدَّ اليدَ بقُطوف أدبٍ وثقافةٍ واجتماعٍ وفنّ.

وهو الشاعرُ. . عرّش كداليةٍ مُباركةٍ قربَ نافذةٍ مفتوحةٍ على مُطلقٍ أسمى.

وبعدُ. . أضاء، محاميًا وقانونيًّا، قناديلَ في عتمِ الجماعة فتنتظمُ وتتوضّحُ رُؤاها.

وعاد. . شيءٌ من نداوةِ أفكارهِ وأحلامِهِ في ذاكرة مريديه، وعبقٌ من رائحة مِداده، زيتِه المقدس، على أردانِ أثوابهم، هم الذين تمسّحوا بمذبحهِ حيث كُتبُه القرابين.

هو منه، فرحُ الانتماء بحبّ، و«الحبُّ نسيان الذات كما في قولِ بونار[5]، و«انتصارٌ على النفس» في تحديدِ

لوايلد[٦]، يُنجي من وَحدة ويُخصب بالوجد صحراء الأعماق.

فرحُ انتماء، لكنّه الفرح المرتدُّ في النهاية همًّا وغمًّا، لا بمعنى الدّمع، البُقعةِ المُعتمة في البال، بل على معنى الامتلاء بهاجس السَّفر خوضًا لبعيد الحياة، كمثال حالٍ تهيُّبِ تُخامرُك، وأنت تتأهَّبُ لركوبِ مغامرةٍ وشأوٍ بعيد.

● الكونيُّ الراقي والفنّ.

أبديّةُ التواصل بين الأنا والآخر هي ذي، حدُّ الأدباء الأدباءِ وأنطون قازان، حتى لكأنّ الكونَ معه لمرّتين من رؤية: انديادٍ ذاتٍ لملامسة السِّوى، فانزياحٍ عن هذا السوى مرّة أخرى إلى حدودِ نقطة، بل هدأةٍ من جمودِ وقتٍ وقعودِ دنيا.

والكاتبُ الكاتبُ، أيكونُ في المدى الأبعدِ للظنّ أكثرَ من حبّةِ مطرٍ تجوزُ الأجواز، في أزرقِها حمولةُ بحر، إلى أوانِ انهمارِها في ثغْرِ وردة، ودوامِ اختلاجها بجُفون غُصن، فاحتمائها بحِضْنِ حوضٍ فنهرٍ فبحرٍ مرّة أخرى؟

يقيني أنه الانتماءُ الفرحُ إلى الحاضرة بمعناها الكونيّ الراقي، فكرًا، فنًّا وخواطر، به أخصبَ صاحبُ هذه المجموعة صحراءه الوَحدة العزلةَ الصّمت، ومن ثمّ آبَ إليها كلّها، حاضرةً ـ بحرًا وسكينةَ نفسٍ عملتْ فأكسبتْ، وما حملتْ وأكسبتْ كان خيورًا كثيرة.

وبعد.. لا تسلّ مع الأديب توصيفًا لفقْرة، ولا توقيعًا لنيرة أو تثمينًا لعبارة. لا يلهينّك مع أنطون قازان بُؤرُ شكلٍ وأمواجٌ وحقولٌ معجميّة. إنّ بعضَ النقدِ يكادُ يصبح جزءًا ممّا تشكوه، كمًّا، إحصاءات، وجداول. يُشيّئُ المخزونَ الجماليَّ مُسقطًا العمارةَ الهيكلَ على رؤوس كهنتها، ويُحيلُهم إلى خَراب. وما الألسنيّة البنيانيّة، دعوى الحداثة، سوى شاقولِ بنّاء، أو هي مالجُهُ والمطرقة، يهوي النقدُ المعاصرُ بكلّها على الشّذْرِ والجوهر، بنيّةِ رَهافةٍ ربّما، ولكنّ أنّى لشاقول بنّاءٍ ومالجِه والمطرقة أن تُنهضَ الألقَ في الحجرِ الكريم تجويدًا وجَلْوة؟

فالفنّ، في أبسطِ تحديداته، هو الفكرةُ العظيمة أُنزلتْ في الشكل الأعظم. وبهذه الصفةِ يغدو الانتقامُ البريء من نقص ما في الحياة[٧].

ظنّي أنّ أنطون قازان، المنتمي بفرحٍ إلى سفَر عمر، نشَدَ مثلَ هذه العظمةِ الفنيّة، فبسَط فوقَ هام الإنسان جُناحًا مؤاسيًا، ولامسَ غضونَ جبينه هو براحة عزاء.

وعندي.. أنّ هذا العظيم فرَحٌ انتمى، حقًّا انتمى، لكن إلى الحزن. يا له أديبًا أطلع أملاً من غرسة الآلام!

هوامش

(١) F. Mauriac: "Dieu et Mammon"

(٢) Ibid.

(٣) Shelley: "Défense de la Poésie"

(٤) Pierre Emmanuel: "Les Nouvelles Littéraires".

(٥) Abel Bonnard: "Savoir Aimer".

(٦) Oscar Wilde: "Le Portrait de Dorian Gray".

(٧) يقول بيراندللو بهذا المعنى: «الحياة أقلُّ حقيقةً من الفن. كلُّ حياة لا يمكن أن تكون خلقًا بلغ تمامه. أما الفنّ، فهو حقيقةٌ بذاته، خارج الزمن والمصادفة والعقبة، فلا غاية له سوى نفسه. لذلك ينتقم الفنُّ للحياة» Pirandello": "Ce soir on Improvise".

* مداخلة لي في احتفالية لجنة "الأوديسة" للثقافة بمجموعة أنطون قازان الكاملة عن دار المراد، وذلك في الثاني من حزيران ١٩٩٨، (الكلمة ٢٦، ١٩٩٨)

٣- كلمة العائلة المحامي شوقي قازان.

أشكر باسم مؤسسة أنطون قازان الثقافية وباسم العائلة مَن أَعَدَّ هذا اللقاء الحميم ، المعافى، مُنشئ دار نعمان للثقافة ومجلس الاثنين الأدبي والثقافي الأستاذ ناجي نعمان على جهوده وعاطفته النبيلة وعلى إخلاصه للثقافة بقدر إخلاصه لعائلته الكريمة. وأشكر الصديق الأستاذ روبير عبد الحي الذي حاضر عن أنطون قازان وهو باحث كفين وأديب أصيل وناقد ينتقل من تحليل الكاتب ونتاجه إلى الغوص على وقائع مجهولة من حياته ، فيزيد القارئ اتساع وغنى. وأشكر الشاعر الكبير الأصيل الوفي شاعر الحب والجمال الأستاذ أنطوان رعد. وأشكر المعلم والناقد والباحث والأديب الكبير الدكتور إميل كبا. وأشكر الأوفياء المخلصين الكرام الذين شاركوا في هذا اللقاء ، متمنياً أن تبقى دار نعمان للثقافة واحة للعلم والمعرفة وان يبقى لبنان منارة إبداع وتفوق.

شكراً للجميع.